تاريخ الجزار

بعد ان قتلت الدولة العثمانيـة سنة ١١٨٩ هـ الشيخ ظاهر العمر الزيداني المتغلب على عكا وصيدا وتلك الارجاء نحو اربعين سنة وسدت الولاية الى رجل بشناقي اسمه احمد باشا الجزار كان من جماعة علي بك امير مصر ، فلما قتل هذا هرب الجزار الى الشام وأقام يختلف الى لبنان و يطلع على أحوال البلاد فعينته الدولة وزيراً على صيدا اولاً ثم أقام في عكا وأخذ يحصنها و يستكثر من المال والرجال ثم عهدت اليه بولاية دمشق وتولاها اربع مرات وكانت سيرته سيئة والدولة آمنـة من ناحيته لانه كان يدفع اليها الخراج المقرر و يجبي لنفسه أضعافه فدامت ولايته في الشام داخلها وساحلها ثلاثين سنة كان فيها سفاكاً للدماء سلاباً للاموال .

ومن جملة ما أخذه المجمع العلمي العربي بالتصوير الشمسي من بعض خزائن الكتب في المانيا تاريخ هذا الرجل بخط جميل وقع في ١٧١ صفحة ذكر فيه مؤلفه المجهول سيرة احمد باشا الجزار وما قام به من المفاخر والمظالم وسفك الدماء وما تجدد في إيالته من المكوس قال المؤلف : وقد رمت بهذا المختصر رقم شرح حاله وتقلب احواله حيث اننا قد جمعنا في تاريخنا كل الحوادث الماضية من ابتداء ظهور الاسلام الى هـذه الايام وقد انتخبنا ذلك من جملة تواريخ صادقة ورقمنا به اخبـار الدول المنتقلة دولة بعد دولة ...

ذكر المؤلف المجهول سيرة هذا الجبار الجزار وبعض ما وقع في ايامه من الكوائن ومما أورده منشور السلطان عبد الحميد خان الاول الى أمراء البندقية يخبرهم بجلوسه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على السدة الملوكية (١١٨٧) قال فيه ما نصه العربي : اننا من قبل الجود الاعلى خادم ومدير الامصار وافخر الانظار (كذا) مدة واسعة وبلدان شاسعة تنعطف اليها بالاندهال مدى الازمنة والاجيال وتزورها النذور بالاحترام اي مكة الزاهرة والمدينة الفاخرة واورشليم الطاهرة . انا السلطان الكلي العدل ومالك الملوك ذو الفضل مالك المدن العظام المحسودة من جميع الانام اي هذه القسطنطينية وبرصا ودمشق الشام ومصر وحلب الشهباء والقيروان وبلدان الكلدانيين المشهورين وفارس ومادي وشيراز وادرنة والقرمان انا حافظ البربر وسيد العبيد والصعيد والحبشة وترسيس وطرابلس الشام وقبرص ورودس وكريت ومورة والبحرين الابيض والاسود وبلدان آسيا الصغيرة وممالك الروم وسواحلها والعشر إيالات البربر والروم والتتر والتركمان والكراد والارمن والكرج ونخوم الارناؤط المتسعة والبشناق العالي وقلعة بير الاغراض (؟) المأخوذة من ملك السويس (السويد ؟) وجميع مدن وقرايا البغضان وكل الفلاخ والنخوم الهندية وقلع وحصون أهملنا عدتها لزيادة كثرتها ... » وهذا الكتاب على هذا الخلل في تراكيبه والفاظه يشبه الخلل الذي كان في ذاك العصر في أجزاء هذه المملكة الواسعة . ومن الغريب ان يصدر عن السلطان بالعربية لا بالتركية .

وتاريخ الجزار مملوء بحوادث النهب والسبي والقتل والمصادرات وقطع المناخير والآذان وظلم الابرياء وقد أورد مؤلفه المناشير والاوامر السلطانية والتقاليد الواردة عن السلطنة او عن الجزار او عن غيره من العمال الى الرعايا ومنها المناشير التي أرسلت لما هجم بونابرت قائد الجيوش الفرنساوية على مصر واستولى على يافا وغزة وفيها عبارات من اسخف ما كتب الكاتبون . تدل على انحطاط اللغة في ذلك العصر انحطاطاً لا نظير له ولم تسبق اليه . على ان عبارة الكتاب كلها عامية او اقرب الى العامية وفيه صورة كتاب سعود بن عبد العزيز الوهابي الى كنج يوسف باشا والي طرابلس الشام يذكر له فيه حقيقة دعوته وقد وقع في خمس صفحات .

ومن مظالم الجزار ما نقتبسه عنوان الادارة في تلك الايام وسوء بختها بعمال السوء انه ظهرت في عكا خيانة بين مماليك الجزار وسراريه فغضب الجزار على المماليك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وخرج الى الخزنة وصحبته القواسة وعددهم نحو ثلاثين نفراً من البشناقية (البشناقيين) فربط المختار اغاسي ومماليك الخزنة والسردار وقطع رؤوسهم ووضع المماليك في السجن فلما رأى بقية المماليك ما جرى على بعضهم وان الباشا يريد القبض عليهم أجمعين لبسوا سلاحهم واتحدوا معاً وحاصروا في السراي وكانوا نحو سبعين نفراً فهجم عليهم الجزار وصحبته القواسة فقام المماليك عليهم بالسلاح وأطلقوا عليه اربع طلقات قيل انه جرح منها جرحاً خفيفاً فابتدأ الجزار يحتال الى ان يملكهم ولما كانوا في تلك المحاورة توجه الخزنه دار وأخرج المماليك من الحبس وأتى بهم الى الخزانة وأغلقوا الابواب ووجهوا المدافع على السرايا وارتجت المدينة رجة عظيمة وأغلقت الاسواق وهرب الناس ثم توسط قزلواغاسي والمفتي عند الجزار فأطلق سبيل المماليك على ان يرحلوا فلم يبق منهم الا الاولاد الصغار فقبض عليهم الجزار وقطع مناخيرهم وآذانهم ونفاهم الى مصر ولم يبق منهم سوى ثلاثة وقتل جملة من السراري والعبيد .

ومن مظالمه انه قبض على اكثر نصارى بيروت واشبعهم ضرباً وسلب جملة اموالهم ولكثرة العذاب باعوا كل ما اقتنوه ودفعوه عنهم واذ كان ضابط الجمرك المدعو فارس الدهان يجمع منهم هذه الاموال غضب عليه الجزار بعد اطلاق النصارى وسجنه وسلب منه ما ينيف على ستمائة كيس ومات في سجنه . ومن مظالمه انه ابتدأ سنة ١٢٠٥ بظلم اهل دمشق فقبض اولاً على السيد عبيد واولاده ووضعهم في السجن واخذ منهم ستين الف قرش ثم اعتقهم فسافروا في الحال الى حلب وقبض على ثلاثين من اتباعه وسجنهم في القلعة فدفعوا عن انفسهم مائتين وخمسين الف قرش وبعد ان استورد منهم المال قتلهم ليلاً ثم قبض على خازن امواله وثمانية مماليك كانوا معه وقتلهم . وجميع من قتلوا لم يظهر لهم ذنب . ثم ارسل فقبض على متسلم عكا وضبط جميع امواله واسبابه ثم نفاه الى مصر وقبض على السيد وفا القدسي الذي كان جعله مفتياً في عكا وقبض على الامام وعلى رئيس الميناء في عكا وقتلهم جميعاً ولما حضر من دمشق الى عكا جعل متسلماً في دمشق محمد اغا عرفا اميني بعدما ظلم الجزار جميع اكابر دمشق وسلب منهم اموالاً لاتحصى (وسلب صيارفة الاسرائيليين وقتل منهم وروّع ابناء نحلتهم) وبعد دخول الجزار الى عكا بعشرة ايام خرج باكراً قبل الشمس الى باب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السرايا وامر باغلاق ابواب المدينة وجعل يرسل غلمانه يقبضون على من يأمرهم بالقبض عليه و يحضروهم امامه من العمال والكتاب ومن اهالي البلد فوضع الجميع في السجن وكانوا يربون على مائتي انسان ثم قبض على النواب كلهم وسجنهم وكان كلما تقدم اليه انسان يكشف رأسه و ينظر في وجهه فالذي يقول فيه نيشان يرجعونه الى السجن والذي يقول مافيه نيشان يطلقه ثم انه احضر الفعلة ايضاً وصنع بهم مثل ذلك وقبض منهم جملة مستكثرة ثم احضر التجار واصحاب الصنائع والعتالة (الحمالة) وعلى هذا المنوال عامل الجميع وقد امتلأت الحبوس وفي ثاني يوم احضر المغاربة وامر ان يخرجوا جميع السجناء الى خارج البلد و يقتلوا الجميع ففعلوا ماامرهم به وكان يوماً عظيماً لم تكن تسمع فيه في عكا غير صريخ المقتولين ظلماً وانينهم وبقي القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد ثم امر بان ينادي المنادي في شوارع عكا ليخرج كل من قتل له انسان فيدفنه واي امرأة رفعت صوتها وولولت تقتل حالاً فخرجت الناس ودفنت موتاها من القتلى ظلماً . وامسى الناس في كرب شديد وخوف زائد واخذ بعد ذلك يرسل جنوده و يقبضون على بعض الفلاحين ومشايخ البلاد واصحاب المقاطعات فمنهم من يقتله ومنهم من يقطع آذانه ومناخيره و يطلقهم .

ولما توفي الجزار في المحرم (١٢١٩هـ) كان من جملة المسجونين عنده رجل يقال له اسماعيل باشا ارناؤطي الاصل كان من جملة عساكر الوزير الاعظم حين حضر الى استخلاص مصر من الفرنسيس ولما قام الفرنج على المسلمين واخرجوهم من مصر وتشتت العساكر في تلك الاقطار حضر اسماعيل باشا الى الجزار فدعاه الى فتح يافا فظهرت منه خيانة مع محمد باشا ابو مرق فقبض عليه الجزار وسجنه وعذبه كما كان يفعل بمن يقبض عليه وبقي في سجن الجزار الى ان وافاه الحمام وقبل وفاة الجزار امر ان يغرقوا من كان في سجنه في البحر فأخرج اسماعيل باشا من الحبس وجعل مكان الجزار فاستولى على موجوده حتى اضطرت الدولة الى قتاله اذ عصا عليها في قلعة عكا فأرسلت عليه حملة ودام الحصار اربعة اشهر حتى اخذ وقتل او سم . وقد نظم بعض الشعراء شعراً سخيفاً في الجزار ومظالمه بعد موته وكذلك فعلوا في التشفي من خلفه ومثل هذا فعل نقولا الترك ونظم قصيدة اطول وابرد من ليالي الشتاء في ذم ابن سعود ومدح الامير بشير ولي نعمته وكاتب يده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والكتاب في الجملة حري بان يطبع بعد اصلاح عبارته وردها الى الاصول العربية في الانشاء لانه مثال من تاريخ بلادنا منذ مئة وخمس وعشرين سنة وما قبلها وما بعدها .

محمد كرد علي